﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧﴾ [التّوبة: 87]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كشفُ دواخِلِ المُتَخلِّفينَ عن الجِهَادِ، وربطه بعدم الفقه، والطّبع على القلوب

ذكرت الآيات السّابقة حال المُخلّفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ وفرحَهم بمقعدهم خِلَاف رسول الله، واستئذانَ أولي الطَّول منهم رسولَ الله ﷺ بأنْ يكونُوا مع القاعدين عن الجهاد، فجاءت هذه الآية لتَصِف دواخل نفوسهم؛ بأنّهم قد رضوا هذا الحال بأنْ يكونوا مع الخوالف، فأدّى ذلك إلى الطَّبع على قلوبهم المريضةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَضُواْ﴾: جذر الكلمة هو (رضي)؛ رضيتُ الشَّيء ورضيتُ به رِضًا: اخترتُه وارتضيتُه[1]؛ والرِّضَا خلافُ السَّخَط[2]. قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: 119 والتّوبة: 100]، ورضا العبد عن الله أن لا يَكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد أن يراه مؤتمِرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه[3]. وقوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ هو الارتياح النّفسيُّ والاطمئنان للقعود عن الجهاد، واختيار معيّة الخوالف على معيّة الرّسول ﷺ.

2) ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: جذر الكلمة هو (خلف)؛ الخَلْفُ: ضدُّ قُدّام[4]. وخَلَفَ فلانٌ بعقب فلانٍ إذا خالَفَه إلى أهله[5]. قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [الأعراف: 169]. ويُقال: هؤلاء خَلْفُ سوءٍ، وهذا خَلْفُ سوءٍ[6].

(1) الفيوميّ، المصبَاحُ المُنير، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (رضي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير: (رضي).
(3) الرّاغب، المُفردات: (رضي).
(4) الأزهريّ، تهذيبُ اللّغة: (خلف).
(5) الخليل، العين: (خلف).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلف).

وَفُلَانٌ خالِفةٌ من الْخَوَالِف إذا كَانَ لَا خير عِنْده[1].قال مجاهد وقتادة: الخَوالِفُ: النِّسَاء، وقال غيرهما: الخَوالِفُ: أخسَّاءُ بعضِ النَّاس وأرديأؤهم، ووَجَدْتُّ الحيَّ خَلُوفًا أي: تخَلّفت نساؤهم عن رجالهم[2].

3) ﴿وَطُبِعَ﴾: الطبعُ؛ أي: الختمُ، ومنه قولهم: ضَعْ عليه طابعًا؛ أي: خاتمًا[3]. الطَّبْعُ: الوسَخُ الشّديدُ على السَّيف. والرّجُلُ إذا لم يكن له نفاذٌ في مكارِمِ الأُمور، كما يَطْبَعُ السَّيفُ إذا كَثُرَ عليه الصّدأ[4]. والطَّبْعُ: الختم على الشّيء. وطُبِعَ على القلوب: خُتِمَ عليها[5]. والمعنى في الآية: أنَّ السُّوء قد أصبح مقبولًا عندهم، مَرْضيًّا في نفوسهم، وكأنّه طَبْعٌ من طبائعهم.

4) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: جذر الكلمة هو (فقه)؛ والفِقْهُ: العِلْم في الدّين. يُقالُ: فَقُهَ الرَّجلُ يَفْقُهُ فِقْهًا فهو فَقيهٌ. وفَقِهَ إذا فَهِمَ. وأفقهْتُه: بَيَّنْتُ لهُ[6]. وفقِه الشَّيءَ: عَلِمَه[7]. الفقه: فَهْمُ الشَّيءِ، قال ابن فارس: وكلُّ عِلْمٍ لشيءٍ فهو فِقْهٌ[8]. واشتقاق الفقه من الشَقِّ والفَتح للنَّفاذ إلى باطن الشَّيء[9]، والمعنى المحوريُّ للفقه: وصولٌ إلى حقيقةِ باطن الشَّيء[10]، والفِقهُ يكونُ نتيجة التّدبّر والتّفكُّر في الشَّيء.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

رضي المنافقون؛ الّذين إذا قيل لهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾، بالتّخلّف عن رسول الله، وعن الجهاد معه، فأتى أهل الغِنَى

رضاء المُنافقين بالدّنايا من القول والعمل، أفضى إلى الطّبع على قلوبهم المريضة

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خلف).
(2) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(3) مُعمَّر بن المُثَنَّى، مجاز القرآن: (طبع).
(4) الخليل، العين: (طبع).
(5) الخليل، العين، وابن سِيده، المُحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طبع).
(6) الخليل، العين: (فقه).
(7) ابن سِيده، المُحكم: (فقه).
(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فقه).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (فقه)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فقه).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فقه).

منهم يستأذنون الرّسول في التَّخلّف عن الغزو والخروج معه لقتال أعداء اللّه من المشركين، واختاروا أن يبقَوا في منازلهم مع الخَوالف من النّساء والوِلْدَانِ، وفرحُوا بما نالُوه من الرَّاحة؛ ظانّين أنَّه سبيلُ النّجاة، فكشفت الآية عن خبايا نفوسهم ودواخلهم، وبيّن سبحانه ما أحدثه هذا الاختيار في قلوبهم من الطَّبعِ عليها، وهو الختمُ وعدمُ التَّوفيق للإيمان، فصارَ النِّفاق طبعًا من طِباعهم، وفقدوا القُدرة على التّفكّر الّذي يؤدّي إلى الإنابة والتّوبةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بـ: ﴿رَضُواْ﴾:

الـرّضـا بـدنـاءة النّفس، والمُقام مـع الـخـوالـف، مـــن الـسّـفـه والطّيش

وبيان ذلك أنَّ قوله: ﴿رَضُواْ﴾ موقعُه استئنافٌ، كأنَّه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالضَّعة والانتظام في جملة الخوالف[2]. فهو استئنافٌ قُصِدَ منه التَّعجيب من دناءة نفوسهم وقلّة رجولتهم؛ إذْ رضوا لأنفسهم أنْ يكونوا تبَعًا للنّساء[3]، أو في معيّتهم، دون عذرٍ يمنعهم من الخروج للقتال والدّفاع.

سرُّ العدول إلى الإخبار برضاهم، أنْ يكونوا مع الخوالف:

تخلُّفهم بسببِ رضاهم بالقعودِ مع الخالفين

عَدَلَ النَّظم الكريم عن الإخبار بالتَّخلُّف، إلى الإخبار بالرّضا، لبيان أنَّ تخلّف هؤلاء كان رضًا واختيارًا منهم، وهو يعكس دناءة أنفسهم، ورضاهم واختيارهم أن يفعلوا أفعال النّساء، أو أن يُوصفوا بأوصافهم، وأن يتخلّفوا عن أفعال الرّجال، من الجهاد والدّفاع والمَنَعَة، وهو من أقبح ما يكون.

إيثارُ التّعبير بلفظ ﴿رَضُواْ﴾:

الفرق بين الرّضا والقبول: أنّ الرِّضا إنَّما يكون رغبة قلبيّة، وأمّا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/412، والنّسفيّ: مدارك التّنزيل: 1/702.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/286.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289.

القبول فقد يكون موافقةً دون تلك الرَّغبةِ القلبيّةِ، فقد يكون القبول موافقةً على مضَضٍ، ولذلك فقد أُوثر التّعبير بالرّضا دون القبول. "وفي اختيار فعل ﴿رَضُواْ﴾ إشعارٌ بأنّ ما تلبَّسُوا به من الحال من شأنه أن يتردّد العاقل في قبوله كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [التّوبة: 38]، وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [التّوبة: 83]"[1].

مـا رضُـوه لأنـفـسـهـم، يتردَّدُ العاقل في قبوله

دلالة تكرار وصف المنافقين، باللّفظ ﴿رَضُواْ﴾:

تضمّنت سورة التّوبة براءةً من المنافقين؛ واستحقاق البراءة منهم بيانٌ لما ارتضته أنفسُهم من الدّناءة، وما ارتاحت إليه دواخلهم؛ إذْ فضحت السّورةُ تلك السّرائر بألفاظٍ لم تَرِدْ في سور القرآن الكريم الأخرى، فذكر هنا ﴿رَضُواْ﴾ لبيان قناعة نفوسهم بعدم الإيمان واختيار سبيل الشَّيطان، وذلك هو الطّبعُ على القُلوب، فاستحقّوا البَراءَة من اللّه؛ ومنه سُمِّيت سورة التّوبة بسورة براءة. ولمَّا كان حالُهم كحال الكافرين بالآخرة ذُكر الفعل ﴿وَرَضُواْ﴾ أيضًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: 7].

سورة التّوبة هي سورة البراءة من المنافقين

دلالة (الباء) ومعناها: ﴿بِأَن﴾:

يتعدَّى الفعل (رضي) بالباء، فيُقال: رضي به، كما يتعدّى بنفسه، فيُقال: رضِيَه، ولم تُفَرِّق المعاجم بينهما، كما جاء في المصباح المنير: رَضِيتُ: الشيءَ ورَضِيتُ به رِضًا: اخترته[2].

تـأكـيـد رضـاهـم بـالـقـرار الـفـاسـد الّـذي اتّـخـذوه

ولكنَّ دخول الباء على المصدر المؤوَّل هنا ﴿بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ يدلُّ على قَبولهم الدُّونيّة، واختيارهم ما يُحيط بكونهم من الخوالف؛ فهي تعكس إصرارهم على القَرارِ الذي اتّخذوه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289.
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (رضي).

بالرّضا، والنّاشئ عن الاعتقاد الفاسد بعدم الجدوى من الخُروجِ مع النّبيّ ﷺ والجهاد معه.

فائدة التّعبير بقوله: ﴿بِأَن يَكُونُواْ﴾:

الكَينُونةُ هنا، اختيارٌ اعتقاديّ محضٌ

فائدة التّعبير بقوله: ﴿بِأَن يَكُونُواْ﴾ هو لدلالة استحسان القُعود، واستحسان القُعود آتٍ من قناعتهم بعدم صدق الرّسالة والرّسول، فاختاروا عدم الخروج للقتال والدّفاع لِما رأوه واعتقدوه: بأنّ عدوّ الرّسول ليس عدوّهم، وقضيّة الإيمان والتّوحيد ليست قضيّتهم، فاختاروا ما يُحقّقُ لهم الرّضا النّفسيَّ والاعتقاديَّ، وانحازوا بعيدًا عن معيّته ﷺ إلى معيّة الخوالف، وهكذا فإنّ (الكينونة) في الآية اختيار اعتقاديّ محض.

إيثار التّعبير بالظّرف ﴿مَعَ﴾:

تـــرك مـعـيَّـة الرَّسُول الأكرم، والتّشبّث بمعيَّةِ الخَوالِف، تؤكّد عدم فقههم

أفاد التّعبير بـ ﴿مَعَ﴾ بشاعة ما اقترفَته نفوسهم من تركٍ لمعيّة الرّسول ﷺ والانحياز إلى معيّة الخوالف، فهم ليسوا في الأصل من الخوالف، فالخوالف هم النّساء اللّاتي جلسن في بيوتهن تاركاتٍ رجالهنَّ مع رسول الله ﷺ ليُقاتِلوا معه، فهؤلاء ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾؛ لأنّهم انضمّوا إلى الخوالف من النّساء بكلِّ رضًا وراحة نفسٍ، ورضوا بالقعود دون عذرٍ؛ واختاروا لأنفسهم أن يكونوا مع مَنْ شرّع لهم الله عُذر القعود لضعفهن وطبيعة خَلْقهن؛ وهنّ النّساء. ولذلك سبقها بـ ﴿مَعَ﴾ دون (من)، ولأنَّهُم هم المُخلّفون عن القتال دون عذرٍ أو حُجَّةٍ، على خلاف الخوالف، فهم ليسوا منهم بل هم معهم.

الـخَـوَالـف هـنَّ الـنِّـسـاء أو الأطفال، ممّن لا قدرة لهم على القتال

سرّ اصطفاء صيغة الجمع في ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾:

لفظة ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ أمكَنُ من (المُتخلِّفينَ)؛ إذْ هم مفعولٌ بهم ذلك، فخرج من ذلك الثَّلاثةُ وأصحابُ العُذْر[1]. فلا يكون أصحاب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.

الأعذار من الرّجال كالمرضى والفقراء منهم، فـ ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ هم الذين أرغمتهم طبيعة خِلْقَتِهم على القعود وعدم الخروج للقتال مع رسول الله ﷺ وهنّ النّساء، فلا يدخل جنس الرّجال معهم.

دلالة (الْ) على التّعريف، في ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ وفائدتها:

الخوالف هنَّ النّساء اللّاتي لا يملكن سوى القعود في البيوت ومداراة الأولاد، قال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾، و(اللّام) في قوله: ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ للتّعريف، فالمعرفة لما هو محدّد معلوم أنّ الخوالف هنَّ النّساء اللّاتي يخلُفْنَ أزواجَهنَّ الّذين يذهبون إلى القتال. وفائدة التّعريف أنّ هؤلاء الخوالف معروفون في المجتمع فهذا هو شأنهم وهذه هي طاقتهم، فما بال الّذين يقدِرون على القتال أن يرضوا بأن يكونوا معهم، تاركين معيَّةَ الرّسول ﷺ والمجاهدين في سبيل الله من المؤمنين الصَّادقين. فقوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ تقريعٌ وإظهارُ شُنْعَةٍ، كما يُقال على وجه التَّعْيير: رضيتَ يا فلانُ كذا؟[1].

الـخـوالـف هـم الّـذيـن لا يملكون، طاقة القتال في أصل خلقتهم

غرض التّعبير بالكناية عن النّساء، ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾؛ فـ (الْخَوَالِف) جمع خالفة، وهي المرأة، وليس في ذلك ذمًّا للمرأة في شيء؛ بل قد تكون في موضع مدحٍ لهنّ لما قدّمْنَ من عمل صالح وحفظٍ للرِّجَال في بيوتهم وأولادهم وأعراضهم، ولكنّ إذا وُصف الرِّجال بالخوالف فذلك تشنيعٌ بهم وتعييرٌ لهم. وقد يُقال للرّجل: خالِف وخالِفة، ولا يُجمع المُذكَّر على خوالف[2]. فـ ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ كنايةٌ عن النّساء[3]، اللّواتي يتخلّفْنَ عن المجاهدين، وهي كناية عن موصوف؛ إذْ ذكر صِفَتهم. وقوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ فيه وجهان:

وصـف النّساء بلفظ (الـخـوالـف)، لا يُـنـقـص من قدرهنَّ شيئًا

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/68.
(2) العُكبُريّ، التِّبيان في إعراب القرآن: 2/654.
(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/77.

الأوَّل: قال الفرّاء: الخوالف: النّساء اللّاتي تخلَّفنَ في البيت فلا يَبرحن، والمعنى: رضوا بأن يكونوا في تخلُّفهم عن الجهاد كالنِّساء"[1].

والثّاني: قال أبو جعفر النّحّاس: يُقال للرّجل الّذي لا خير فيه: خالفة، فهذا جمعه بحسب اللّفظ؛ والمراد: أخِسّةُ النّاس وأخَالفُهم، ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: مَن لا خير فيه[2]. قال الرّازيّ: "المقصود منه التَّنبيه على ذمِّهم وإلحاقهم بالنّساء والصّبيان والعاجزين الّذين شأنهم القعود في البيوت، وهم القاعدون"[3]. ولم يأتِ فاعلٌ صيغةُ جمعه فواعل، إلا حرفان: فارسٌ وفوارس، وهالكٌ وهوالك"[4]. وهذا القول هو الأَوْلى، لأنَّه أدلُّ على القلّة والذّلّة. وكان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف[5].

نكتة عدم التّصريح بلفظ (النّساء):

لم يُصرّح بالنّساء، ولكن كَنّى عنهن بالخوالف؛ لأنَّ بعض النّساء كُنّ يشاركن في القتال مع المجاهدين في تطبيب الجَرحى، وتأمين الطَّعام والأقواتِ لهم، أمّا الخوالف فهنّ اللّواتي يبقين في ديارهنَّ لمُدَارَاة الأطفال ورعاية شؤون المنزل؛ وحفظ بيوت أزواجهنّ في غيابهم.

ليس جميع النّساء من الخوالف، إذ منهنّ من كان لها دور في المعارك

الغرض من التَّعبير بالاستعارة في ﴿وَطُبِعَ﴾:

قوله: ﴿وَطُبِعَ﴾ في هذه الآية مستعارٌ، فلمّا كان (الطَّبع) على الصَّوَّان والكِتاب مانعًا منه، وحافظًا عليه، لا يُصيبه تغيير، فشبَّه القَلب الّذي قد غشيه الكُفر والضَّلال حتّى منع الإيمان والهُدى منه بالصَّوَّان المطبوع عليه، ومن هذا استعارة القُفل والكِنان للقلب[6]. استعارة مكنيّة أفادت ثبات قلوبهم على حالة الضّلال، فلا يُحتمل

الطّبعُ على القلوب، دلالة الإصرار على الضّلال

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/77.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/62.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(6) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/77.

أن تأتيها الهداية، وذلك لِمَا اختاروه لأنفسهم من الكُفر والضّلال ومجانبة الحقّ وأهله "قال الحسن: الطَّبع عبارةٌ عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحدِّ الّذي كأنَّه مات عن الإيمان"[1]. "و(الطَّبع) تمثيلٌ لحال قلوبهم في عدم قبول الهُدى بالكتاب المختوم، والطَّبع مرادفُ الخَتْم"[2].

دلالة الواو العاطفة: ﴿وَطُبِعَ﴾:

قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، الواو للعطف، وفائدة الوَصْل بينهما أنّ الأولى بيّنت ما هم فيه من الرّضا، بأخسّ ما يمكن أن يقع فيه الرّجال من الهوان والاطمئنان والرّكون إلى ذلك الحال، فبيّنت حالة النّفس ودواخلها؛ قال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾، والجملة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ بيّنت حالات القلوب التي نتجت عن ذلك الرّضا والهوان النّفسيِّ الّذي تحوّل إلى طبعٍ على القلوب وخَتْمٍ عليها، فلا يميزون بين حقٍّ وباطلٍ. فكانت الآيتان كالسَّبب والنَّتيجة. ويمكن أن تكون الواو للتفريع فيكون قد فرَّع على الطَّبع انعدام علمهم بالأمور الّتي يختصّ بعلمها أهل الأَفْهام، وهو العلم المُعبّر عنه بالفقه؛ أي: إدراك الأشياء الخفيّة؛ وذلك ممّا يُكرِمُ الله به عباده المؤمنين من أنوار القلوب؛ فقد آثر هؤلاء الدَّعَةَ على سُمعةِ الشّجاعة، والرّاحة على ثواب الجهاد؛ لأنّهم لا يفقهون ما يمكن أن يُصيبهم من الفضل بجهادهم مع رسول الله ﷺ؛ إذ لم يُدركوا إلاّ المحسوسات، فلم يكونوا فاقهين، وذلك أصل جميع المَضارِّ في الدَّارَيْن[3].

عطف الجملتين مع تكامل المعنى، يجعل الجملتين كالسَّبب والنَّتيجة

دلالة التَّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

فائدة حرف الجرّ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أنّه يجرُّ معاني

الخَتْم مُهيمنٌ على قلوبهم، وطامسٌ لبصائرهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289 - 290.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289 - 290.

الأفعال إلى الأسماء؛ أي: توصُّلها إليها[1]، فهو يُوصل معنى الخَتْم إلى القُلوب، فيكونُ الخَتْمُ مُهيمنًا على قلوبهم، وحرف الجرّ (على) للاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلّ على ذلك؛ فهو من العُلوّ، وفي ذلك الاستعلاء معنى القوّة في الختم، ما يستدعي ثبات الخَتْمِ على تلك القلوب.

دلالة (الفَاء) في: ﴿فَهُمْ﴾:

الطّبع المنحرف، يُنتج عدم الفقه، وقلّة الفهم

تسبَّب الخَتْم على القلوب في حرمانهم، وحجز قلوبهم عن فقه الأمور على حقيقتها؛ فكأنّ القُلوب قد أُقفلت؛ قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؛ فلا يكون منها الفقه، ولا يكون منها الرّجوع ولا الإنابة.

الغرض من التّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾:

الرّبطُ بين الطَّبع على القلب، وعدم الفقه

قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، تذييلٌ لما سبق من الكلام، فاختُصر الطّبع بعدم الفقه، واختُصرت أفعالهم ممّا اقترفوه من الدَّناءة في حُبِّ القُعود مع الخَوالِف وتَرْكِهم معيّة الرّسول والخروج للجهاد بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فحِيل بين قلوبهم وبين الفقه، والفهم والوعي، وخسروا ما خسروه من الخير في دنياهم وآخرتهم، والغرض من التّعبير بالجملة الاسميّة وصفهم بعدم الفقه على الدّوام والاستمرار، وفيه تيئيسٌ من الطَّمع في هدايتهم.

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾:

الفقه علمٌ ناتجٌ عن جهد يبذله الفرد، به تعرف الحقائق، ويدرك السّبيل

الفقه هو العلم النّاتج عن التّفكّر والتّدبّر في الأمور والأحداث على خلاف العلم، ولذلك فإنّ العلم من صفات الله، والتّفكّر ليس من صفاته سبحانه؛ بل هو من صفات العُقلاء من خلقه، فلمّا جاء الطَّبع بحسب البناء على ما لم يُسمّ فاعله ناسَبَ أنْ يُذكر الفقه دون العلم، وهذا على خلاف ما سيأتي من ذِكْر العلم مع تسمية الفاعل وهو الله تعالى في الآية (93).

(1) الرّضيّ، حاشية الرّضيّ: 2/354.

دلالة تقديم المُسنَد إليه ﴿فَهُمْ﴾، على خبره الفعليّ ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾:

قُدِّمَ المسنَد إليه على خبره الفعليِّ و"جيء في إسناد نفي الفقاهة عنهم بالمُسنَد الفعليِّ للدّلالة على تقوّي الخبر وتحقيق نسبته إلى المُخبَر عنهم وتمكّنه منهم[1]. وجاءت تقوية الخبر من الإسناد مرتين: مرةً لخبر المبتدأ، ومرةً لإسناد الفعل إلى الضَّمير العائد على المُسنَد إليه، والفعل المُضارع المنفيُّ لدلالة نفي احتمال فقههم في الاستقبال، فَوَقَع الطَّبْعُ على قلوبهم؛ فلا يتجدّد شيءٌ في قُلوبهم يُحدثُ الفقه وصحَّة النّظر.

القلوب المطبوعُ عليها، لا تفقه المكارمَ ولا تعي القِيَم

الغرض من حذف مفعول ﴿يَفْقَهُونَ﴾:

وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفقهون ما في الجهاد وموافقة الرَّسول من السَّعادة، وما في التّخلُّف عنه من الشَّقاوة[2]. فحُذف مفعول ﴿يَفْقَهُونَ﴾، وهذا إيجازٌ بالحذف، وفائدته العموم، بانتفاء فِقههم كلّ نافعٍ يؤدّي إلى الإيمان والإنابة إلى الله تعالى.

الطّبع على القلب، ينفي الإيمان، والمَيل إليه

بلاغة التَّعريض:

في الآية تعريضٌ بأنَّ القوم ليسوا من الإيمان بالله تعالى في شيء، وإن لم يُعرضوا عنه صريحًا، فهم قد أعرضوا عن الإيمان، بإعراضهم عن الجهاد واستئذانهم في القعود[3].

الإعراض عن معيّة الرّسول الأكرم، إعراضٌ عن الإيمان بالله وبرسالته

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

قوله تعالى في هذا الموضع من سورة التّوبة في قوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87]، وبين ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

تنوّعُ أسباب الطّبع على القلوب ومظاهره

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/290.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/92.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

[المنافقون: 3]. ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنّها سبقت بالإصابة بالذّنوب، قال: ﴿أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: إنّ ذنوبهم كثُرت وطغت على أعمال مُقترفيها، حتّى أصبحوا وكأنّ في آذانهم وقرًا، فلا يستمعون لقول الحقّ، وهذا وجهٌ من أوجه الطّبع على القلب، ومَظهرٌ من مظاهره. ومن دواعي الطّبع على القلب الكُفر بعد الإيمان، كما جاء في سورة المُنافقون، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3]. فالكُفر بعد الإيمان هو سبب الطّبع على القلوب.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّضَا والقَبولُ:

الرّضا فوق القبول، وهو مرحلة عاليةٌ عليه، فالرِّضا قَبول العقل مشفوعٌ بقَبول النّفس، وراحة داخليّة، أمَّا القبول فهو الإيجاب والموافقة من جهة العقل، وقد تكون النّفس راضية أو كارهة.

الـرّضـا قـبـول العقل، مشفوع بقبول النّفس وراحتها

الطَّبعُ والختْمُ:

الطَّبعُ أثرٌ يَثبت في المطبوع ويلزمه؛ فهو يفيد معنى الثّبات واللّزوم ما لا يُفيده الخَتْم، ولهذا يُقال: طَبَع الدّرهم طَبْعًا. وهو الأثر الّذي يتركه فيه فلا يزول عنه، كذلك أيضًا قيل: طَبْع الإنسان لأنّه ثابت غير زائل، وقيل: طُبع فلانٌ على هذا الخُلُق إذا كان لا يزول عنه، والطَّبع علامةٌ تدلُّ على كُنْه الشَّيء، وطَبْعُ الإنسان لدلالته على حقيقة مزاجه من الحرارة والبرودة، وطَبْعُ الدّرهم علامة جوازه[1]. أمّا الخَتْم فيُنبئ عن إتمام الشَّيء وقطع فعله وعمله؛ تقول: ختمتُ القرآن؛ أي: أتممتُ حفظه، وقرأتُه[2]. قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّـهُ عَلَىٰ

الـطَّـبـع أثـبَـتُ وألزَمُ من الخَتْم

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 336.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 212.

قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، إشارة إلى ما أجرى الله به العادة؛ أنّ الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل أو ارتكاب محظور - ولا يكون منه تلفّت بوجه إلى الحقّ - يُورثه ذلك هيئة تُمَرِّنه على استحسان المعاصي، وكأنّما يختم بذلك على قلبه[1].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 160.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»